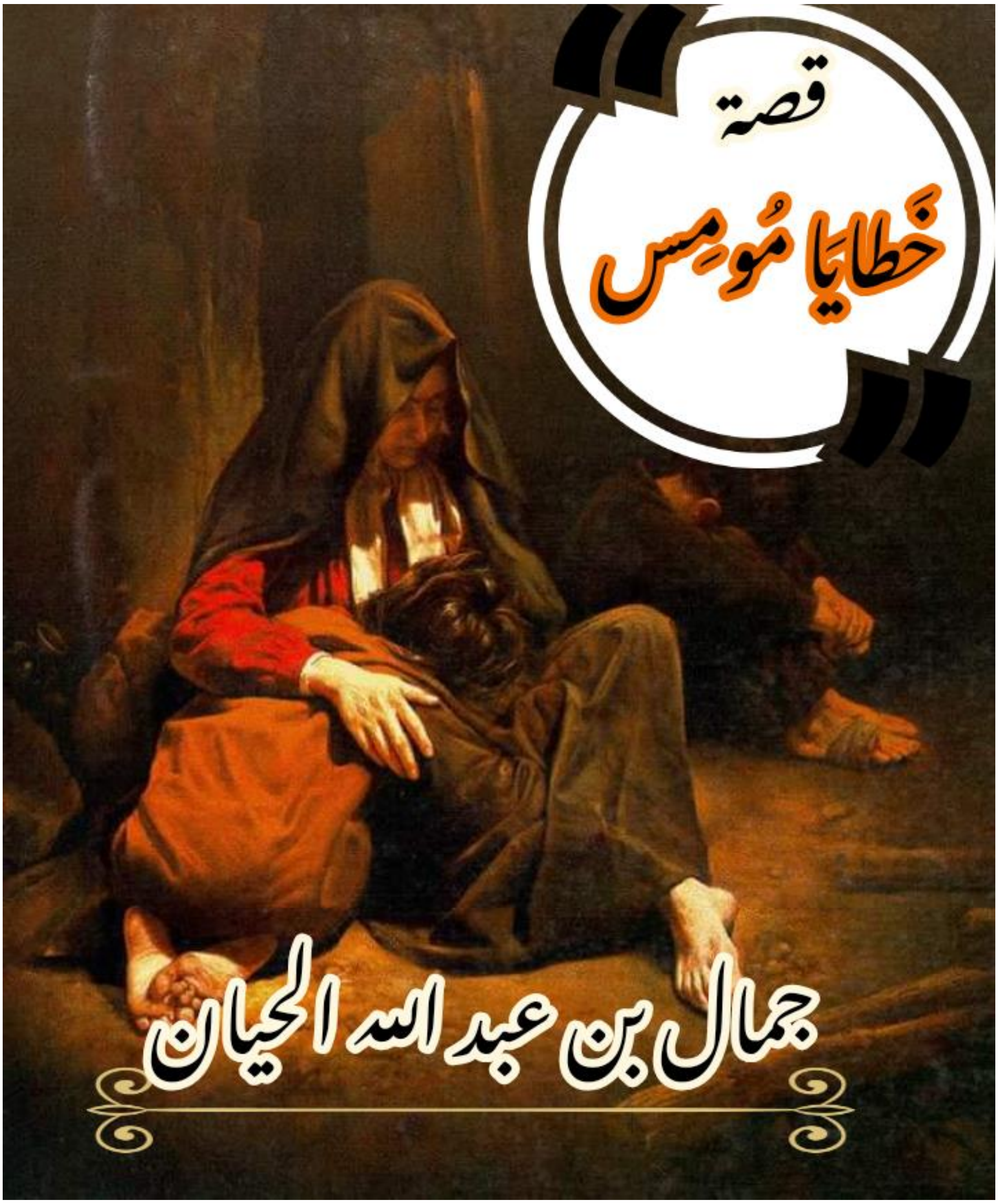
قصة
خَطايَا مُومِس
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي :

ISBN :   110-675-65-9002

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخلّ والصديق

إهداء :

إلى كل الأحبّة في جميع الأقطار ...

دمتم شمعة مضيئة في حياتي ...

فدام حبّي لكم ...

ودام حبّكم لي ...

تقديم :

أنا إنسانٌ عاش التشرّد والحرمان . أُكلَ من القمامة ذات يوم ...

فهل تنتظرونَ منّي أن أُكتبَ لكم عن الفراشات ...!!!

إنّه الطنين الذي ينبعث من البحر وصياح السّفن . وهو ينظر بأهدابه المهتزّة ، إلى ذلك الطفل ذي الشّعر الملزّج والوجه القذر والعينين المخيفتين ، ويكلّمه بصوت أجشّ محتبس ، ومحرّك السيارة يواصل أزيزه ، وقد نبع من وجه الصبي الدّهش .

بدأ المعلّم يحملقُ بنظرات شفقة ، فلم يشعر أبدا بثقل مهنته كما شعر بها اليوم . يرى الطفل كنجم سيختفي على صفحات السماء المظلمة . يراه محبّا للعزلة والحذر - على ما يبدو- أمام اضطراباته المفاجئة ، وهو يتمنى أن يحذو حذو أقرانه ، فقال متلعثما وسط الظلام المتكاثف :

ــ أريد أن أدرس عندك سيدي .

رنت صيحة ارتياح وتحية لحظة إضاءة مصابيح الزقاق ، ونسمة خفيفة تحمل أصواتا هامسة و تلك الأجواء مرحة الشذى .

أجاب المعلّم :

ــ عرّفني على نفسك أولا .

رفع الصبيّ عينيه الغائمتين في ازدياد مطرد ، والزقاق تتصاعد منه رائحة الشواء والبول ، أخذ يمضغ علكة في هدوء ، وهو يسير حذاء الجدار ووجهه يوحي بشيء من الغموض .

فهم المعلم ضِمنا أنّ الطفل قد أزعجه السؤال ، وأنه قد خدش بذلك كبرياءه . أو أنه قد فهم من ذلك تنقيصا منه وازدراءً له .

تجنّب الإجابة ، وانطوى على نفسه ورجع قافلا إلى بيته ، كَتومًا كما يبدو ، وفي نهاية الأمر انصرف حتى حين .

في اليوم التالي وفي نفس المكان وهو يحاول تشغيل سيارته ، حين بدأت طلائع النجوم في الأفق بعدما انسحب الغروب الجميل أمام جحافل الليل . وقف الطفل من جديد وهو يكرر نفس الطلب :

ـــ أريد أن أدرس عندك سيدي المعلم .

في هذه المرة أضاف كلمة (معلم)، وظل بعد ذلك ملتزما بالصمت ، والمدرس يرى فيه ما يحويه العالم من اضطراب وعدم استقرار ، مفنّدا كلّ قسوة وألم ، كأنه ازداد درجة بؤس عن ذي قبل . والطفل يرتدي لباسا فضفاضا متوهما أنّه بذلك يستطيع الانتفاع به مدة أطول .كان مفتقرا للشعور بالدفء البشريّ ، وقد أشاح بوجهه منصرفا من جديد .

وفي اليوم الموالي ، كان الجوّ مكفهرّا ، وضباب كثيف حجب السماء ، والناس قد أصابها نوع من الخمول الحزين ، يجوسون خلال الشوارع . ففي نفس المكان وهذه المرة في الصباح الباكر . وقف الطفل شامخا وقد حمل في يده اليمنى كيسا من البلاستيك احتوى بداخله كراسة وقلما . وعيناه المستديرتان مثقلتان بالنعاس ، وأنفه الدقيق وفمه المستقيم صورة

بومة مهذبة . وكانت بمعيته سيدة عجوز قصيرة تشبه الجرذ الأسود ، وهي تخاطبه بكلفة ، وعيناها قائمتان ، تمّان عن الجد ، وشفتاها الغليظتان مضمومتان في غالب الأحيان .

أصبح المعلم شاردا أمام كل هذا ، بعدما انصرفت تلك العجوز مسرعة وتركت الصغير . ولما اقترب منه أمسك بيديه وسأله :

_ ما بالك يا بنيّ ، لم تجبني ، من أنت ...!!!

وعلى فم الطفل زهرة صغيرة من الدم ، وملؤه خوف مصحوب بالتفكير العميق .كان المعلم شخصا طويلا ، ذا شارب أسود ، مكور الجسم ، مستجاد الرأي ، يندفع في بعض الأحيان بلا تفكير ولا رويّة ، جادّ نموذجيّ ، صارم ، وقور محترم لا يتكلم ببادئة ولا عائدة، وهو فيما بدا من الرأي وظهر أنّه غير موافق على التحاق الطفل بالقسم دون اتخاذ الإجراءات الإدارية الضرورية .

ألحف في السؤال من جديد :

_ لا بدّ أن تخبرني من أنت ، ولماذا لم تسجل كما ينبغي أصلا ...الكل يعرف هذا،ولكني سأدخلك حالما يقدُم المدير ليرى كيف سنسوّي وضعك الحالي .

تبَسّم الطفل ببراءة ، واستوى على مقعد في الخلف منطويا ضامرا في معطفه . بدأ المعلم في شرح الدرس كعادته وهو يخالس النظر إليه في الجيئة والذهاب .

فجأة أتى على الطفل الوجع وهو يشكو ألما في جوفه ، يكاد يمزّقه تمزيقا ، وقد بدا عليه الهزال ، يهذي دون توقف . اخضر لون وجهه ، وأصبحت شفتاه في لون الشمع ، ثقل جفناه وتقطعت أنفاسه وتلاحقت .

وردّ من خلال دموعه :

ـــ لا أريد أن أموت ...

كان – حتى هذه اللحظة – منشغلا بفرك معدته الجائعة ، أخذ ينكث الأرض ، وزوبعة هادئة من الأوهام تجتاح عقله الصغير وهو يبكي بكاءا متقطّعا .

هبّ نسيم دافئ بعدما انقشعت السحب تحت سماء زرقاء رطبة ، ورائحة الزهور تُشم من مكان بعيد . تحولت دهشة المعلّم إلى ذعر ، وقد مُلئ القسم ببواعث الحيرة والخوف المصحوب بالقلق. شهق الطفل شهقة مرارة ، والتلاميذ الصغار يرقبون بحذر ، تداخلت الأصوات فجأة ، وانقطع الهمس للحظات فأصبح القسم أرضَ موات .

لقد سقط المعلّم في بئر لا ربّ لها ولا حافر ، وهو يقول في نفسه :

ـــ ما السبب الذي حدا بك إلى هنا أيها الشقيّ .

فتّش معطفه لربما يجد شيئا ، رقم هاتف أو عنوانا أو أي شيء . وهو يقلب قصاصات الجرائد وصور الممثلات وإشهارات دور السينما ، وجد صورة جمعت كل برايا الدنيا ووضعته في فوهة بركان وقد أصابته في مقتل .

تأكّد من جديد معتمدا على دقة الملاحظة ، وسأل الطفل :

ــ هل تعرف من في الصورة !!!

أجاب الطفل :

ــ إنها أمي ، وهي التي أرسلتني إليك وسافرت بعيدا ، ودّعتني بحرارة كأنها لن تعود.

أحقًا لن تعود سيدي المعلم ...!!

انكفأ المدرس للخلف ، وقد تحول بكاء الأطفال بالقسم إلى نشيج حزين مؤلم والطفل يبدو متعبا متهالكا بعينين حمراوتين وشفتين يابستين ، والمعلم يسمع همسات غامضة وهو يشعر بالحزن ، بل وكاد يبكي .

كان الصغير يستعطفه وكانت الشمس قد انحدرت على الجدار . قلّب الصورة من جديد، ولم يستطع أن يفرح للدرجة التي تذوب معها مخاوفه ، وبدأت الأصوات تفتح وتتداخل .

وهو يخاطب نفسه :

ــ هل يمكن أن يكون ما أراه حقيقة ...؟؟!

هزّ رأسه بأسًى ونهر التلاميذ :

ــ كلكم حيوانات دواب ، هذه العصا ستأكل جلودكم ... إلى أماكنكم هيا ...

ولما رأى الأولاد على حالهم ، والكل قد لزم مقعده ، عانق الطفل بحرارة وهو ينوح :

_ أهلا بك في كنف أبيك يا بني ، اغفر لي ، لن أعيد خطيئتي ، أعدك .

فتعانقا بعد اثني عشرة سنة من الحرمان .

انتهى بفضل الله وكرمه في 11 صفر 1442 ه الموافق ل 28 شتنبر 2020م